دراساتٌ أدبية:

نماذج من وصف المعارك والصحراء في الشعر العربي النيجيري في القرن التاسع عشر الميلادي: مختارات للشاعرين عبدالله بن فودي والشيخ محمد الأمين الكانمي

Description of Battles and Dessert in Nigerian Arabic Poetry in the ١٩th Century: Excerpts from two poets ʿabd Allāh bin Fawdiy and al-Shaykh Muḥammad al-ʾamīn al-Kānmiy

Diskripsi Peperangan dan Padang Pasir dalam Puisi Nigeria Berbahasa Arab dalam Kurun Ke-١٩ (S.M.): Kajian Beberapa Karya Terpilih Oleh Penyair-Penyair ʿabd Allāh bin Fawdiy dan al-Shaykh Muḥammad al-ʾamīn al-Kānmiy

مشهود محمود محمد جمبا*

ملخص البحث:

دخل الإسلام بنيجيريا في القرن الحادي عشر الميلادي، وقويت شوكة العربية وظهرت آثارها في الدوائر الحكومية، وفي النتاج العلمي والفكري، بيد أن معظم التآليف كانت تدور حول العلوم الدينية واللغوية؛ أما النتاج الأدبي الصِّرْف فكان نادرا.لقد بلغت اللغة العربية في البلاد أوج مجدها؛ حيث أصبحت اللغة الرسمية للإدارة والدواوين والقضاء وغير ذلك.أما النتاج الشعري

* أستاذ مساعد، قسم الدراسات العربية والإسلامية، جامعة ولاية كوغي، أنيغبا، نيجيريا.

في هذا العصر فقد كان غزيرا وقيّما، وأوسع دائرة وأفقا منه في العصر السابق، وتناول أغراضا شتى كالغزل، والوصف، والمراسلات وغيرها.أما الوصف خاصةً فقد تطور وتعددت المواصيف لتشمل الصحراء، والحروب، والمعدات الحربية، والخيل، والبلاد والربوع، وأخلاق الناس وطبائعهم وغير ذلك. وهدف هذا المقال هو إلقاء ضوء كاشف على حال الوصف بوصفه غرضا شعريا في نيجيريا بغية الوقوف على مستوى هذا الفن الشعري وخصائصه في الشعر العربي في نيجيريا. ووصل البحث إلى بعض النتائج، وهي: كثرة الإنتاج الأدبي شعرا ونثرا؛ أما من حيث الشعر فقد رأينا التوسع الذي دخله عامة، وشعر الوصف خاصة، وأما من ناحية النثر فيكفي دليلا ما خلفوه من تآليف ضخمة في السياسة والأدب، والنحووالصرف، واللغة والعروض والبلاغة وغيرها.

الكلمات المفتاحية: عبدالله بن فودي- قصيدة جيش الفتوح- التحليل- قصيدة نسم الصبا- التحليل.

Abstract:
Islam has come to Nigeria in the ١١th century, the power of Arabic came to its peak and its influence is apparent in the Government sectors, and in the knowledge and thinking product. Most of the works were produced in the religious and linguistic themes and it was still uncommon to see something in the field of literature. Arabic Language has reached its highest point of honor in this country, as it has become the national language in offices, bureaus, courts and others. As for poetry, it is in a better situation than before, its scope has become wider as there are different objectives like love poetry, descriptive, correspondence and many more. However for descriptive poem it has developed and has quite a number of descriptions that also include the

desert, battles/wars, wars equipment, horses, country, regions/residence, people ethics and characters and many more. This article aims at discovering the objectives of the poem objectives in Nigeria. This research has concluded that: large number of production in poetry and prose; the poetic expansion. As of prose, it was suffice to see the abundance in the works that are produced in this respect.

Keywords: Abdullah bin Fuad– Poem of The conquering Army– Analysis– Poem of the Morning Breeze– Analysis.

Abstrak:

Islam telah tersebar di Nigeria pada kurun ke-١١ Masehi, duri bahasa Arab telah menjadi kuat dan kesan-kesannya telah ketara di jabatan-jabatan kerajaan, dalam dapatan ilmiah dan pemikiran. Bagaimanapun, kebanyakan tulisan adalah tentang bidang agama dan linguistik, manakala dapatan kesusateraan tulin adalah jarang. Sesungguhnya bahasa Arab telah di negara itu telah sampai ke tahap kegemilangannya apabila ia telah dijadikan bahasa rasmi dalam pentadbiran, persuratan, kehakiman dan sebagainya. Adapun dapatan puisi pada zaman ini adalah banyak dan bernilai yang mana skopnya adalah lebih luas daripada zaman lalu. Tema-temanya juga adalah pelbagai seperti cinta, deskripsi, persuratan dan sebagainya. Tema deskripsi khusunya telah berkembang dan mencakupi padang pasir, peperangan, persediaan peperangan, kuda, negeri dan kawasan kediaman, moral dan tabiat manusia dan sebagainya. Objektif makalah ialah mengesan deskripsi sebagai tema puisi di Nigeria seterusnya mengukur kedudukan seni puisi ini dan menentukan ciri-cirinya dalam puis-puisi berbahasa Arab di Nigeria. Kajian telah mendapati antaranya: terdapat banyak karya kesusasteraan samada berbentuk puisi atau prosa; dalam karya puisi, kita telah mendapatinya mengalami perkembangan secara umum, khususnya puisi deskriptif, manakala karya prosa pula, cukuplah apa yang ditinggalkan daripada penulisan-penulisan besar dalam politik dan sastera, nahu dan morfologi, bahasa, *'arūdh*, retorik dan sebagainya.

Kata kunci: ‘Abdullah Bin Fūdī– Puisi ‘Tentera Pembukaan’– Analisa– Puisi ‘Tiupan Angin Timur’.

مقدمة:

دخل الإسلام ما يعرف اليوم بنيجيريا في القرن الحادي عشر الميلادي، وذلك عندما دخل مملكة كانم/برنو عن طريق التجار العرب الذين استوطنوا المنطقة فيما بعد وكوّنوا جالية عربية عرفت بعرب شُوا. وقد انتشر الإسلام في أرجاء البلاد خاصةً في بلاد هوسا في القرن الرابع عشر، وانتشر تبعا لذلك التعليم العربي والإسلامي، وكثر العلماء والتلاميذ والمدارس. ومما يجدر بالذكر نزوح وفود من العلماء من المغرب العربي ودولة مالي القديمة إلى منطقتي كنو وكتسنا بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر الميلاديين. ومن أجلّ هؤلاء العلماء الوافدين: الشيخ عبد الكريم المغيلي (ت١٥٠٤م)، وأحمد التزختي (ت١٥٢٩/٣٠م)، ومخلوف البلبلي (ت بعد١٥٣٤م)، ومحمد مَسَنِي (ت١٦٦٧م)، ومحمد الصباغ (ت١٦٤٠م)، ومحمد الوالي (ت١٦٨٨م). لقد ترك هؤلاء العلماء وتلاميذهم بصمات واضحة وآثارا طيبة في الحقل السياسي والثقافي والعلمي، وقويت شوكة العربية وظهرت آثارها في الدوائر الحكومية، وفي النتاج العلمي والفكري، بيد أن معظم تآليفهم كانت تدور حول العلوم الدينية واللغوية، أما النتاج الأدبي الصِّرْف فكان نادرا.وفي أوائل القرن التاسع عشر ظهر بنو فوديو بالحركة الإصلاحية التي شملت الحياة الدينية والاجتماعية والثقافية، وقامت الحركة بقيادة المجدد الكبير الشيخ عثمان بن فودي (ت١٨١٧م)، ومعه شقيقه الأصغر عبد الله بن فودي الملقب بعلامة السودان (ت١٨٢٦م)، ونجله محمد بلو (ت ١٨٣٧م)، وبنته أسماء (ت ١٨٦٤م)، ووزيره غطاط بن ليما (١٨٤٢م). ويقال إن الأسرة الفودوية وحدها خلّفت ما لا يقل عن ٣٠٠ مؤلف فيالشعر والنثر.[١] لقد بلغت اللغة العربية في البلاد في هذه الحقبة أوج مجدها، وشهدت تطورا لم تشهده من قبل حيث أصبحت اللغة الرسمية للإدارة والدواوين والقضاء وغير ذلك. أما النتاج الشعري في هذا العصر فقد كان غزيرا وقيّما، وأوسع دائرة وأفقا منه في العصر السابق، بدليل أنه تجاوز المنظومات العلمية والدينية التي هيمنت على إنتاجات

العصور السابقة، وتناول أغراضا شتى كالغزل، والوصف، والمراسلات وغيرها من الأغراض التي لم يطرقها الشعراء السابقون، أولم يكثروا فيها القول. أما الوصف خاصةً فقد تطور عن ذي قبل، وتعددت المواصيف لتشمل الصحراء، والحروب، والمعدات الحربية، والخيل، والبلاد والربوع، وأخلاق الناس وطبائعهم وغير ذلك. وهدف هذا المقال هو إلقاء ضوء كاشف على حال الوصف كغرض شعري في نيجيريا بغية الوقوف على مستوى هذا الفن الشعري وخصائصه في الشعر العربي في نيجيريا في واحد من أزهى عصوره الأدبية هو القرن التاسع عشر الميلادي. وقد اخترنا لهذه الدراسة ثلاثة نماذج لشاعرين من فحول شعراء هذه الحقبة، هي: قصيدة (جيش الفتوح) في وصف الحروب والمعارك للشيخ عبد الله بن فودي، وقصيدة أخرى له في وصف الصحراء، وقصيدة (نسيم الصبا) في وصف الحرب أيضا، للشيخ محمد الأمين الكانمي.

أولاً: قصيدة (جيش الفتوح) للشيخ عبد الله بن فودي

موجز ترجمة الشاعر

ولد الشيخ عبد الله بن فودي في قرية مَغَنِمِي لأسرة فلانية من أصل تُورُودِي من مالي.[٢] لم تتحد كلمة المؤرخين حول تاريخ ميلاده، فعلى حين يرى علي أبوبكر أنه ولد حوالي سنة ١٧٦٠م[٣] يورد السيد هسكت ثلاثة تواريخ مختلفة هي: ١٧٦٧، و١٧٦٦/٧، و١٧٦٣.[٤] ولكن إذا صح أن أخاه الأكبر الشيخ عثمان بن فودي ولد بين عامي ١٧٥٤/٥٥م، فالأقرب إلى الصواب أنه ولد حوالي عام ١٧٦٦/٧م؛ لأنه كان يكبره باثني عشر عاما على الأرجح. كان أبوه محمد فودي قد رباه هو وأخاه عثمان تربية إسلامية خالصة، فعلى يده درس القرآن الكريم في سن مبكرة، وفي حوالي الثالثة عشرة من عمره تتلمذ على يد شقيقه عثمان وأخذ عنه الأدب والتوحيد والنحو والصرف، والتصوف والفقه والتفسير والحديث.[٥] ولعل أبرز أساتذته بعد أخيه عثمان هو الشيخ جبريل الذي قال فيه قوله المشهور:

جبريـل مـن جـبر الإلـه بـه لـنا ... دينـا حنـيفا مستقـيم المـنهج[٦]

وافى وحـزب ضـلالة في تِلْـعةٍ ... والـدين في وهـد كشـيء بهـرج

فـأزاح عنـه حنـادس الأعـلاج مـن ... عاداتـهم وكسـاه حلـة زِبـرج

لم يخـش في إظـهار ديـن الله مـن ... مسـتهزئ أو لائـم مـتمجمج[٧]

تبحر عبد الله في العلوم العربية وصار فيها علما لا يشق له غبار، وكان فريد عصره ووحيد دهره. لقد وضع أكثر من ٧٥ مؤلفا في مختلف العلوم، بل ومن الباحثين من عدّ له أكثر من مائة مؤلف.[٨]ويقول بعضهم: (ليس هناك بين علماء نيجيريا من ترك لنا تراثا ضخما في الأدب في القرن التاسع عشر مثل عبد الله بن فودي).[٩] له أشعار جياشة تقطر بلاغة، وجيميته التي مدح به شيخه جبريل وأخاه عثمان وغيرهما، والتي مطلعها:

عـج نحـو أضـواج الأحبـة مـن مـج ... واشـرب مـن الإنشـاج مـاء الـزعبج

شـجّ الـدموع علـى مـنازلهم بهـا ... واشـف الجنـان مـن الهـمم الـدّمّج[١٠]

خير شاهد على ما نقول، وقد قيل إنه شاعرهم الأعظم.

كان الشيخ عبد الله طويل القامة، ضخم الجثة أسود اللون، وكان شجاعا باسلا دافع عن قومه بسنانه كما دافع عنهم بلسانه، وقد أصيب بجروح مرتين في الحرب.[١١] عيّنه أخوه الشيخ عثمان وزيرا له إبان حروب الجهاد، وبعد فتح ألقاضاوا في حوالي سنة ١٨٠٨م أو١٨٠٩م قطع له الشيخ جميع القطر الغربي من البلاد،[١٢] حيث اتخذ غْوانْدُ مسكنا وأصبح أول أمير لها. توفي رحمه الله تعالى في بداية عام ١٨٢٩م عن عمر يناهز ٦٦ عاما.

بين يدي القصيدة:

هذه القصيدة قالها الشيخ عبد الله بن فودي في وصف الفتوح التي تحققت على أيدي الجيش الإسلامي تحت قيادته، وقد فتح الله لهم أكثر من عشرين حصنا من حصون الكفار، ولهذا

سمى جيشه في القصيدة بجيش الفتوح.يبلغ عدد أبيات القصيدة ٣٧ بيتا وكلها تدور حول الحديث عن النَّوى، وفقدان الأحبة في الجهاد، ووصف الحرب. ويبدو من الكلام الذي جاء قبل القصيدة أنها قيلت بعد عام هجرة الفوديين، أي سنة ١٨٠٥م. وتمثل هذه القصيدة تطورا كبيرا في منهج شعر الوصف في نيجيريا، لأنها –على ما يبدو– أُفْرِدت لوصف الحرب وما جرى فيها من حصار، وقتل وتشريد، وإقبال وإدبار، وأسر وغنيمة، من دون الاستطراد بالحديث خارج نطاق الموضوع، وهذه ظاهرة غير معهودة في الحقبة قبل الفلانية، ولهذا اخترنا دراسة القصيدة برمتها لأنها غير متعددة الأغراض. هذا وللشيخ عبد الله قصائد كثيرة في الحرب وكلها على مستوى رفيع من البلاغة والروعة نذكر منها عينيته التي مطلعها:

بـدأت بحـمد الله والشـكر يتبـع علـى قمـع كفـار علينـا تجـمع

تـوارق مـع قـوبر وينـف سـفيههم يجـزبهم والله يـرأى ويسـمع

وداليته التي مطلعها:

ألا مـن مبـلغ عـني لـداد وزيـد وكـل ثـاوٍ في بـلاد

ولاة الكفـر خـوف فـوات مـال وطَمْـعَ سـلامة مـن ذي فسـاد

أما المصادر الذي اعتمدت عليها في نقل القصيدة فاثنان؛ الأول: النسخة الأصلية من كتاب تزيين الورقات لعبد الله بن فودي، وقد طبعت بمطبعة جامعة إبادن النيجيرية عام ١٩٦٣، والثاني: كتاب تزيين الورقات الذي قام السيد م. هِسْكِتْ بتحقيقه والتعليق عليه وترجمته إلى اللغة الإنجليزية، وقد طبع أيضا بمطبعة جامعة إبادن عام ١٩٦٣م.

نص القصيدة:

١ تـذكرت والـذكرى تثير لـذي النـوا[١٣] همومـا وفي الـذكرى تَهُـبُّ صـبا الهـوا

أخـلاي مـاتوا في الجهـاد وغـيره وبعـدي عـن شـيخي فـأرّقني الجَـوا[١٤]

فمـــن مبلـــغٌ عـــني بنـــيّ وإخـــوتي وأهـــلي وجـيراني ومـن معهـم ثَـوا[١٥]
بـــأني ودَنْـــدا[١٦] مـــع عـــلي وجمعنـــا وأفراســـنا في الفتـــح والعـــزِّ والـــرِّوا[١٧]

٥ فتـــحنا حصـــونا بـــين قُنـــدا وكُنْـــدُطا يـــزيد علـــى عشـــرين بـــالقهر والقُـــوا
وســـالمنا رغمـــا ســـواها فأســـلمت بظـــاهرها والله يعـــلم مـــا انطـــوا
ثلاثـــة كُـــنْدا لِمَ ماسُـــو وكلـــكلو وزِيمَ فَلَمْ حصنين دُنْكا الذي خَوا[١٨]
وبانْـــذُ وحصـــني غِنْبنـــا رُومُ غِفُـــرُوا وحصنَي مغاذنْ كان ماطاط في الموا
وزور غَـــقِي رَنْـــدالِ ثم عظيـــمها وليـــلابَ منـــه فـــرّ كُنْـــدُط فـــانزوا

١٠ وفي اثنـــين مـــع عَشْـــر المحـــرم فتحُنـــا عظيمَ الحصون حصنَ فُودِ الذي غوا
قُـــدارِ كَبـــاوا[١٩] ثم فـــر ظهـــيرةً بفرسانه ذاتَ الشَّمال على الصُّوا[٢٠]
فغـــادر في ذا الحصـــن مـــالا كـــأنه لقـــارون لم يأخـــذ بـــزاد إلى القِـــوا[٢١]
ولـــولا شِـــحاك الشـــرع ثم سلاســـل المـــروّات لاستـــغنى الـــذي كلنـــا نـــوا
سمـــا جيـــشنا جـــيشُ الفـــتوح فكلنـــا حـــوى مـــن فتوحـــات الغنـــائم مـــا حـــوا

١٥ وليـــس لنـــا أمـــر يســـيء قلـــوبنا مـــن الـــدين والـــدنيا ســـوى وحشـــة النَّـــوا
وفقـــد أحـــباء كـــرام تتابـــعوا لـــجنات عـــدن في قـــرار وثُنْثُـــوا
مـــتى مـــا تذكـــرت الإمـــام وحزبـــه تمـــوج في قلـــبي بحـــور مـــن الـــدوا[٢٢]
فـــإن ســـر غُـــوبِر والتَّـــوارق ذاك الـــ ـــقتال سُـــجال[٢٣] لـــيس مرجعنـــا سَـــوا

فمـــن قتـــلاهم في جهـــنم دائـــما ومن في جنان الخلد ليسوا على استوا

٢٠ ومـع ذا فكـم يـوم بكُـنَّ مَتَنْـكَري وغُـــرْدَم وطـــانْ غِـــدا ويـــومٍ لتـــاغُوا

وريم جـــــميعا ثمِ بُمُبُـــــرمُ بعـــــده وبـوُرِي بـه ذاقـوا ضـروبا مـن التّـوا[٢٤]

فســـار لألقاضـــاوا جيـــش جموعنـــا فطـــافوا بـــه والحـــرب نزّاعـــة الشّـــوا[٢٥]

فلـــست تـــرى إلا مغـــيظا ومحنقـــا كوى غيره عن نزع سهم أو اكتوى[٢٦]

فـــو الله لـــولا خنـــدق ومـــمرَّد[٢٧] عميـق طويـل لاستحالوا هبـا الكُـوا[٢٨]

٢٥ رحلـــــنا إلـــــيهم بالعِـــــيال ومالـــــنا حصـــرناهمُ شـــهرا بـــبابهم الخِـــوا[٢٩]

ولم يبـــق بيـــت بـــين ريمَ وحصـــنهم ومـــازُم ومـــازُوزِي لـــذلك مـــا خَـــوا

فخـــــلوا لـــــنا أقـــــواتهم وبـــــلادهم ونحـــن حـــواء بـــين زِرْوَ وطـــانْ رُوا

ويـــــوم أتـــــونا للقـــــتال فأدبـــــروا نقتّـــلهم مـــن تـــلّ ماسُـــوا لـــدَنْبَوا

وكـــم مـــرة جـــاءوا بيانـــا فأقـــشعوا وما فيهم من صوب صاحبه ضَوا[٣٠]

٣٠ وأخـــرى أتـــوني فيـــه خـــامس خمســـة فولـــوا ومـــا نـــالوا الـــذي جمعهـــم نـــوا

وطـــورا أتـــوا جـــمعا وحينـــا توزّعـــوا بشـــرق وغـــرب ثم خـــاب الـــذي غـــوا

ومـــا ســـاعة إلا يـــصحّ ســـماعنا[٣١] صُـــراخ فتـــلقاهم سِـــراعا بـــلا التّـــوا

علـــى كـــل جـــرداء وأجـــرد شـــيظم[٣٢] تـــراه كصـــفراء الجـــراد إذا اســـتوا

قـــد اعتـــاد غـــارات الصـــباح تخـــاله إذا ما جرى فوق الرُّبى طار في الهوا

٣٥	فلـــما رأونـــا لا نـــملّ جـــهادنا	لقتـل وأسـر جلّهـم خـاف فـارعوا
	ففـروا إلى البلـدان شـتى وجـمعهم	بجمعأنـــاس كـــان في ســبإ بـــوا[٣٣]
	فلـــله حـــمدا أولا ثـــم آخـــرا	فقـد تم نظمـي وهـو حـالٍ لمـن روا[٣٤]

شرح مضمون القصيدة:

افتتح الشاعر هذه القصيدة بتسجيل حنينه إلى من مات في الجهاد وفي غير الجهاد من أخلائه، وذكر أن النوم قد فارق عينيه لبعده عن شيخه. ثم طلب من يحمل أخبار فتوحاتة العديدة، وانتصاراته المتكررة إلى بنيه وإخوته وأهله وجيرانه، فقد فتح هو وفرسه "دندا" وخادمه علي، وفرسانهم بالقوة والقهر عددا كبيرا يربو على العشرين من حصون الأعداء المنيعة بين قُنْدا وكُنْدُطا كما أرغموا آخرين على المسالمة فأسلموا في الظاهر، لكن الله يعلم ما يضمرون (الأبيات ١-٦). وأخذ يعدّد الحصون المفتوحة على أيديهم، وهي كُنْدا، ولِمَ، وماسُو، وكلكلو، وزِيمَ فَلَمْ، وحصنا دنكا وبانْذُ، وحصنا غنبنا (روم، وغفرو)، وحصنا مغاذن (كان وماطاط)، وزور، وغقي، ورندال، وليلاب، وحصن فود، ثم انتقل إلى ذكر قائد جيش أهل كب الذي وسمه بـ:(قدار) قائلا إنه فر وترك خلفه مالا كثيرا يشبه مال قارون. وقد وصف الله سبحانه وتعالى قارون وماله في القرآن الكريم قائلا: "إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾[٣٥] (البيتان ١١-١٢).

ثم انتقل إلى وصف جيشهم الذي يسمى جيش الفتوح، وقال إنه علا وسما حتى تم له فتوحات كثيرة أدرّت لهم من الغنائم ما ليست بقليل. وبيّن أنه ليس هناك شيء يقلقهم في الدين وفي الدنيا سوى وحشة فقدان الأحباء الكرام الذين سقطوا ضحايا الحرب في منطقتي قِرارِ وتُنْثُوا، وخص بالذكر بين هؤلاء الإمام محمد ثمبو وجماعته، فذكراهم تسبب له المرض، ثم رد على الأعداء من قبيلة غوبر والتوارق سرورهم من قتلى المسلمين قائلا إن

الحرب سجال ودُولة، وأن مآب قتلى المسلمين ليس سواء مع مآب قتلى الكفار، فليس من قتلاهم في جهنم سواء مع من قتلاهم في جنة الخلد (الأبيات١٤-١٩).

وبعد ذلك عاد إلى ذكر أيامهم في القرى والحصون التي وقعت تحت أقدام جيش الفتح، والقرى هي: كن، ومتنكري، وغردم، وطان غدا، وتاغوا، وريم، وبمبرم، وبوري، وذكر أيضا سيرهم إلى ألقاضاواوحصارهم لها (٢٠-٢٢). ثم شرع في ذكر أحوال الغزاة وما دار في الحرب من القتل والطرد والهرب؛ قال إنك لا ترى إلا غاضبا ومحنقا يحرق غيره بالنار أو يطلب حرقه. ثم بين أنهم رحلوا إلى أعدائهم بعيالهم وأموالهم وحصروهم شهرا كاملا مقيمين خلاله على بوابتهم ولم يبق بيت بين ريم وحصنهم، وقد يكون ذلك بسبب تخريبهم لمنازلها. أما مازم ومازوزي فلم يتم تخريبهما. ولقد تم جلاء الأعداء حتى تركوا لهم أطعمتهم وبلادهم، على حين شيدوا هم أكواخهم بين زِرْوَ وطَنْ رُوا (الأبيات ٢٣-٢٧). ثم قال إنه كثيرا ما يأتيهم الأعداء لقتالهم لكنهم يصدونهم صدا يرغمهم على الإدبار هاربين، ثم يقاتلونهم من تل ماسو إلى دنباوا. ثم إنه كثيرا ما يهاجمهم الكفار ليلا لكنهم ما يلبثون أن يفروا متفرقين أيادي السبا. وكشف أن الأعداء ذات مرة هاجموا خمسة كان هو واحدا منهم، لكنهم أرغموا على الانسحاب خائبين. وكشف عن خطة الأعداء في الهجوم، فهم طورا يأتون جماعة وطورا آخر يأتون متفرقين من شرق وغرب، غير أنهم في كلتا الحالتين يخيب رجاؤهم. وأوضح أنه لا تمضي ساعة إلا ويقرع أسماعهم صراخ النجدة من المقاتلين، وأنهم ما أن يسمعوا ذلك حتى ينجدوهم بلا توان (٢٨-٣٢)، ثم انتقل إلى وصف الأفراس التي يقاتلون بها أنها عظيمة وصلبة حتى صارت جرداء من الشعر نتيجة كثرة خوضها للمعارك. وقد نظر في ذلك إلى قول عنترة بن شداد في معلقته:

والخيـــل تقـــتحم الغـــبار عوابســـا مـــا بـــين شيـــظمة وأجـــرد شـــيظم

وشبهها في سرعة تنقلها بصفراء الجراد حين تطير. وأضاف أن الأفراس قد اعتادت غارات الصباح، وأنها حين تجري يخيل لك أنها تطير فوق الهضاب (البيتان ٣٣-٣٤).

وانتقل إلى وصف الأعداء قائلا إنهم لما رأوا تجلدهم وعدم مللهم القتل والأسر في سبيل الجهاد خافوا واضطربوا وتركوا أمر القتال وفروا جميعا إلى بلدان مختلفة، مثلهم مثل أهل سبأ، وهو قوم انقرضوا، ذكرهم الله سبحانه في القرآن الكريم حيث يقول: "لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور: فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمطوأثل وشيء من سدر قليل" (سبأ:الآيتان ١٥-١٦) (البيتان٣٥-٣٦). وختم الشاعر القصيدة بالحمد لله أولا وأخيرا، وبشيء من الفخر بأن القصيدة تحلو لمن يرويها.

التعليق على القصيدة:

تصور هذه القصيدة حال وصف الحرب في العصر الفلاني منهاجا وأسلوبا ولغة وخيالا. فأول ما نلاحظ فيها أن الشاعر لم يبال بوصف دقائق الحرب، كوصف اكفهرار الغبار الذي نجده في مثل قول بشار الأعمى:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

أو وصف البسالة والتفتيك والتمزق الذي نجده عند عنترة في قوله:

يخبرك من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ومدجج كره الكماة نزاله ... لا ممعن هربا ولا مستسلم

جادت يداي له بعاجل طعنة ... بمثقف صدق الكعوب مقوم

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ... ليس الكريم على القنا بمحرم

أو وصف خصائص السيف والرمح الذي نجده في قول الشنفرى:

هتوف من الملس المتون يزينها ... رصائع قد نيطت إليها ومحمل

إذا زل عنهـا السـهم حنّـت كأنهـا مـــرزّأة عجـــلى تـــرن وتعـــول

لكننا بدلا من ذلك كله نجد الشاعر يقول إنهم فتحوا حصونا تزيد على العشرين بالقهر، وأن الأعداء فروا وتفرقوا أيديسبأ. أما معمعة الحرب ونيرانها وعويلها فإن الشاعر لم يتعرض لذكر تفاصليها.ونلاحظ أيضا أنه لم يعتن بإيراد المعدات الحربية المتنوعة التي استعان بها الجانبان المتقاتلان لعل ذلك يساعدنا على الوقوف على مدى التطور الذي وصلت إليه الصناعة الحربية في تلك الحقبة من الزمن.

ولكن الحقيقة التي يجب التنبه لها أن الشاعر ربما لا يحتاج إلى تلك التفاصيل كما احتاج إليها الشاعر العربي الذي اتخذ قرض الشعر مهنة وحرفة، وذلك لأسباب عدة منها:

١. أن الذي يعني هذا الشاعر أكثر هو الإعلان عن قوة عساكر المسلمين، وتدوين الغزوات التي خاضوها ومواضعها في سجل الذكرى، حفاظا عليها من الضياع والنسيان، يدونها للأجيال القادمة كمواد تاريخية يتدارسونها، ولهذا لم يغادر غزوة أو موقعة من مواقع الحرب إلا وذكرها.

٢. أن الشاعر كما ذكرنا آنفا عالم فقيه، وقائد حرب باسل، رغبته الأساسية في نظم القصيدة تدوين الوقائع الحربية باللغة العربية تقديرا وإحياء لها، وحفاظا عليها منعاديات الزمان، وهي اللغة التي تمثل جانبا مهما من ثقافته وشخصيته، وجانبا أهم من عقيدة الإسلام. ولا شك أن الشاعر قد وفّق إلى تحقيق هذين الغرضين.

ثانياً: وصف الصحراء في قصيدة للشيخ عبد الله بن فودي

ترجمة الشاعر:

سبقت ترجمته في دراسة القصيدة السابقة (جيش الفتوح).

بين يدي القصيدة:

يبلغ عدد أبيات هذه القصيدة ٤١ بيتا، مطلعها:

ولما مضى صحبي وضاعت مآربي وخلفت في الأخلاق أهل الأكاذب

وخاتمتها قوله:

عليكم صلاة الله ثم سلامه بأصحابكم والأهل يا كهف هارب

ويبدو أن الشيخ نظم القصيدة بين عامي١٢٢١هـ و١٢٢٢هـ الهجريين (أي ١٨٠٧م)[٣٦] لأنه كما قال نظمها في طريقهم إلى خير خلق الله محمد صلى الله عليه وسلم ولم يخرجها لأحد حتى وصلوا بلدة كنو فألحّ عليه أهلها في إخراجها فكتبها لهم ثم ألف لهم كتابه(ضياء الحكام) وكان ذلك في السنة الرابعة من هجرتهم؛[٣٧] (لأن هجرتهم بدأت يوم ١٠ من ذي القعدة ١٢١٨هـ الموافق ٢١ من فبراير ١٨٠٤م.[٣٨]

والقصيدة بائية تدور مواضيعها حول وصف أحوال الناس السيئة من جهل، وترك لطلب العلم، وتضييع للأمانة، وتولية المناصب للجهال، وغير ذلك مما حمله على صرف عنانه عنهم متوجها نحو مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم كما تدور حول وصف الصحراء ومدح الرسول الكريم. هذا، ويعدّ وصف الصحراء من الأغراض التي لم تحظ باهتمام شعراء االحقبة، بل لعل الشاعر بهذه القصيدة فريد دهره في تناول هذا الغرض إذ لم نعثر على قصيدة أخرى تعرضت لوصف الصحراء، على الأقل بمثل هذا التفصيل.وسنختار من القصيدة ١٤ بيتا فقط للدراسة، وهي الأبيات التي يصف الشاعر بها الصحراء.

نص الأبيات المختارة للدراسة:

صرفت عناني[٣٩] عنهم متوجها إلى خير خلق الله معطي الرغائب

فصبّرت نفسي فى ركوب مفاوز[٤٠] خلال فيول كالهضاب قوارب

ولا أثـــر في الأرض إلا الـــذي لهـــا ربيـــعا وصـــيفا كالبئـــار الســـواقب[٤١]
أســـير بـــلا علـــم ولا قـــود قائـــد ونـيل السبيل في الفيافي العواشب[٤٢]

٥ بخمســة أحــرار كــذاك الرقــيق مــع ثـــلاثة أفـــراس كمـــثل الركائـــب
نشـيم عطـاشا[٤٣] حينحـان نزولنـا ذوائـــب أشـــجار الميـــاه الشـــوارب
وكـــم ليـــلة بتـــنا بـــها نابغـــية[٤٤] ولا نـــار إلا نارهـــا في الســـباسب[٤٥]
وسمارناجيرانـــــــنا أقربـــــــاؤنا بعـوض[٤٦] وحـيّاة[٤٧] وجمـع العقـارب
خمائـلها[٤٨] والقـاع أثمـارها الأضـا[٤٩] جـدار ودار والقـرى[٥٠] كـأس شـارب

١٠ أوانـــــسنا أقواســـــنا وجعـــــابنا[٥١] رمـــاح وأســـياف رقـــاق المضـــارب
وصـــار لنـــا الآثـــار للنـــاس بعـــدما قربنـــا لعـــمران عجيـــب العجائـــب
وأولى كـــلام النـــاس أحـــرى ديـــارهم وأنفســـهم صـــارت غريـــب الغرايـــب
فقلـــت وذا أمـــر يســـير بجـــنب مـــا نـــريد إذا مـــا حـــم نيـــل المئـــارب[٥٢]
أحـــادي المطايـــا حثـــها[٥٣] للمشـــارق ولا تلتـــفت في ســـيرنا للمـــغارب

شرح مضمون المقطوعة:

يقول الشاعر إنه صرف فرسه عن قوم وصف أحوالهم في أبيات سابقة، متوجها به نحو خير خلق الله محمد صلى الله عليه وسلم وبما أنه كان عليه أن يقطع الفيافي الطروحة قبل وصوله مرماه –وفي قطع الفيافي ما فيه من التعب والنصب– فقد صبّر نفسه غير متعجل. ومن مغامرات السفر في الصحراء القاحلة مقابلة الوحوش وأنواع من الحيوانات الضارية وجها

لوجه، مع قلة المحتمى. ومنها أيضا قلة المياه وعدم الأوانس مما يثير الذعر في نفوس الرحل، وكل هذا يحمل الراحل على الصبر أو التصبر. والشاعر يسير بين فيول ضخام كالهضاب ملتمسا الماء في جوف الليل، ولم يجد في الأرض إلا آثار الفيول تلك، وقد وصف الآثار بأنها كالبئار في الشكل والصورة، إلا أنها غير عميقة، بل هي قريبة السقي. ثم ذكر الشاعر عدد المسافرين معه في الفلاة؛ فهم خمسة أحرار، وخمسة أرقاء، وثلاثة أفراس، وثلاث إبل وهم جميعا يسيرون في متاهات الفلاة بلا سابق علم، أو إرشاد قائد بل ولا أثر يسيرون على معالمه، ولما حان وقت نزولهم اشرأبت نفوسهم إلى ذوائب أشجار المياه وهم عطاش. ثم شبه الليالي التي قضوها في الفلاة بالليل الذي وصفه الشاعر الجاهلي المشهور النابغة الذبياني حين أثقلته الهموم، وذلك في قوله:

كـــليني لهـــم يـــا أميمـــة ناصـــب وليـــل أقاســـيه بطـــىء الكـــواكب

تطـاول حـتى قلـت: لـيس بمـنقض ولـيس الـذي يرعـى النجـوم بآئـب

وصـــدر أراح الليـــل عـــازب همـــه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

ثم شرع يعدد لنا أصدقاءهم وجيرانهم الجدد في الصحراء، وذلك على عادة الشعراء الجاهليين الذين يتخذون من بين الحيوانات أو أدوات الحرب جيرانا. فقال إن سُمّارهم بعوض، وجيرانهم حيات، أما أقرباؤهم فعقارب. وهذا يُذْكِرنا قول الشاعر الصعلوك الشنفرى الأزدي، في لاميته المشهورة:

ولي دونكـــم أهلـــون ســـيد عملـــس وأرقـــط زهلـــول وعرفـــاء جيـــأل

ثم ذكر أربعة أشياء هي نادرة الوجود في الصحراء، وهي: الخمائل (الأشجار الملتفة)، والقاع، والثمار، والأضا (الغدير) وشبهها بأربعة أشياء مألوفة في الحَضَر؛ فأشجار الصحراء بمثابة الجدار، وقيعانها تقوم مقام الدار، وأثمارها قرى الضيف، أما أضَياتها فكأس شارب. ونفهم من هذا أن المشبه بها غير متوفرة في صحرائه، والمشبهات هي التي تقوم

مقامها.ثم استمر الشاعر في ذكر أصدقائهم الذين استأنسوا إليهم، وهم –هذه المرة– أقواس، وجعاب ورماح، وأسياف. ثم قال إن آثار الناس التي رأوها بالقرب من البلاد لمن أعجب العجائب، بل كلام الناس، وديارهم وأنفسهم كل ذلك من غرائب ما سمعوا وشاهدوا، ولكن تلكم العجائب والغرائب أمر يسير لا يساوي شيئا إذا قورن بما كانوا يأملون ويرغبون فيه إذا تم لهم.

وأخيرا، طالب الشاعر حادي مطاياهم أن يحثها نحو المشرق غير ملتفت نحو المغرب، فإن أوصلتهم المطايا الغاية والمنى فتلك هبة من الله وتوفيق، وإن عجزت فلا لوم إلا على الركاب المسافرين. وختم القصيدة بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

التعليق على القصيدة

تمثل هذه القصيدة نموذجا حيا، وصورا متكاملة للوصف في هذه االحقبة، رسم لنا الشاعر خلالها لوحة فنية رائعة تعكس بوضوح البيئة الصحراوية. ولا شك أن الشاعر قد أجاد في هذا الوصف إجادة تجعله في صف واحد مع أبرز وصافي الصحراء من الشعراء العرب قديما وحديثا، فهاهوذا الشاعر ينقل لنا الفيافي بحيواناتها وأشجارها وغياهبها وآثارها، وغير ذلك من مظاهر الصحراء نقلا حيا صادقا. هذا وقد تأثر في كثير من معانيه بالقصيدة الجاهلية كما بيّنّا من قبل، لكن لم يكن ذلك منه تقليد أعمى، بل كان صادق العاطفة والشعور، فقد جعل صحراءه، على سبيل المثال، معشبا وذلك طبقا لواقع بيئته الجغرافية، على خلاف الصحراوات القاحلة التي عاش فيها الشعراء الجاهليون مثلا.

ثالثاً: قصيدة (نسيم الصبا) للشيخ محمد الأمين الكانمي

ترجمة الشاعر:

ولد الشيخ محمد الأمين الكانمي بمدينة فزان عام ١٧٧٨م،[٥٤] وكان أبوه لانغا من الكانمبو، وأمه من عرب طرابلس.[٥٥] قضى طفولته بمصر يتعلم في مدارسها حيث كان أبوه الشيخ لانغا يعمل، ولما رأى الوالد أن ابنه قد نما وترعرع واشتد عوده وأصبح فتى ناضجا قوي البنية فكر في الرجوع إلى وطنه الأصلي واشتدت رغبته في ذلك.[٥٦] ثم قرر أن يؤدي فريضة الحج قبل العودة إلى وطنه، فحج معه محمد الأمين غير أن الوالد توفي بالمدينة المنورة.ولما عاد الكانمى إلى وطنه أصبح شيخا على مقاطعة برنو نائبا عن الماي في حكم الكانمبو، ثم صار مربيا وأستاذا كبيرا،فضلا عن أنه شيخ البلد، ولذلك فقد كان يؤم مجلسه كثير من الناس بقصد المشورة والنصيحة.كان الكانمى عالما غزير العلم، والرسائل المتبادلة بينه وبين الفوديين أكبر دليل على مكانته العلمية، ولكنه فيما يبدو غير مكترث بالتأليف، وقد قال عنه الشيخ آدم عبد الله الإلوري: (لم يعرف له التأليف غير قصيدة واحدة في التوسل بالأسماء الحسنى، وأولها:

أيـا طيـب الأسمـاء يـا مـن هـو الله ومن لا يسمى ذلك الإسم إلا هو[٥٧]

ولما ضعفت دولة برنو نتيجة الهجوم الفلاني المتكرر وذلك في عهد السلطان دونامه بن أحمد الذي هرب من العاصمة متوجها إلى قرية صغيرة عرفت بـ:(ميقوارى) ظهر محمد الأمين الكانمي، وكان لايقل خطرا وعظمة عن الشيخ عثمان بن فودي فهرع إليه السلطان مستنجدا. لبى محمد الأمين نداء السلطان دونامه فقاد قوة عسكرية جرارة حررت بها مدينة غَسَرْغَمُو المحتلة، وشيئا فشيئا ازداد نفوذ الشيخ في البلاد حيث صار الملاذ الوحيد يتوجه صوبه السلطان دونامه كلما تعرض لهجوم القبائل الفلاتية. وأخيرا عين رئيسا لبرنو. يقول الشيخ إبراهيم صالح في الظروف التي أدت إلى تعيين الكانمي رئيسا أو شيخا لبرنو: (إن قارءنا الكريم يدرك من خلال هذه السطور المتقدمة مدى قوة نفوذ الشيخ "محمد الأمين"

وسيطرته روحيا على البلاد، الأمر الذي ساور قلوب الكثيرين من (بني سيف) الشك من أجله وانتقدوا السلطان (دونامه) أشد الانتقاد، وأخيرا تم خلعه من الملك عام ١٨١١م، وخلفه شقيق والده على الملك، وهو السلطان (محمدا نغليروما) وبقي في الحكم ثلاث سنوات، وهناك حدثت فتن كثيرة لعل أسبابها هو خلع السلطان (دونامه) إلى مكة في عام ١٨١٣م، وهناك تعاهد السلطان دونامه للشيخ محمد الأمين الكانمي بمال واسع بأنه سيبذله له كل سنة، وسوف يجعله رئيسا أو شيخا لقبائل (الكانمبو) الموجودة في بلاد (كانم) الواقعة إلى القرب من بحيرة تشاد وأذن له بأن يبني لنفسه مدينة تخصه، وهناك بنى الشيخ (محمد الأمين الكانمي) مدينة (كُوكَوَ) على أنه ينتقل من مدينة (نفرنو) إلى مدينة (كوكو). ومنذ ذلك اليوم أصبح الشيخ الأمين هو سلطان (برنو) الحقيقي، ولضعف السلطان عن القيام بواجباته إلى مدى بعيد مال أكثر المواطنينإلى "محمد الأمين" وولوه أمورهم).[٥٨] ظل أمين الكانمي رئيسا وشيخا لبرنو إلى أن وافته منيته عام ١٨٣٥م،[٥٩] عن حوالي ٧٧ عاما، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

بين يدي القصيدة:

تفتتح القصيدة افتتاحا غزليا بقول الشاعر:

نسيم الصبا إن جئت ربعا بكُوكَوَ وشاهدت ما في الباب من متردد

نظمها الشيخ محمد الأمين الكانمي (أول شيخ يتولى الإمارة الكانمية)، وتعرض فيها لوصف ربوع مدينة كوكو القديمة، ثم وصف إحدى حروبه مع الأعداء من أهل باغِرْمِي.

هذا ولا ندري على وجه التحديد متى قيلت القصيدة ولكن أكبر الاحتمال أن الشاعر نظمها في أعقاب الحرب التي اندلعت في عام ١٨١٨م بين جنوده وقوات السلطان عثمان بوركو ماندا سلطان باغرمي، والتي كان النصر فيها حليفا للأمين الكانمي وجنوده. وقد اعتمدت في نقل القصيدة على مصدرين هما: نسخة مخطوطة بمكتبة الدكتور كياري إبراهيم

الشريف بجامعة ميدوغري، ورسالة الماجستير التي قدمها يعقوب يونس إلى جامعة بايرو بكنو عام ١٩٩٢م بعنوان: عرض وتحليل لنماذج من الشعر العربي البرنوي في االحقبة ما بين ١٨٩٠ – ١٩٧٠م. يبلغ عدد أبيات القصيدة ٢٨ بيتا، ولكننا سنقوم بدراسة ١٦ بيتا فقط منها، وهي الأبيات التي تصف الحرب.

نص الأبيات المختارة للدراسة:

وبشـــر أهـــالينا وكـــل بـــلادنا ... وجمـع أحـبائي ذوي الجـد والجهـد

بـــأن عظـــيم المـــن جـــل ثنـــاؤه ... حبانـا نهـارا في الطغـاة ذوي الجحـد

أبـاد جنـود الشـرك بـعد عتـوهم ... وبـاءوا بأنـواع مـن الخـزي والطـرد

أتيـناهم يـوم الخمـيس بجحفـل[٦٠] ... كصيب مزن[٦١] هد[٦٢] بالبرق والرعد

٥ ولا مـاء إلا الضـامرات[٦٣] وفوقهـا ... كمـاة[٦٤] مـن الأبطـال والأسـد الـورد

بعـزم وحـزم آخـذين سماهـرا[٦٥] ... ومـا ثم إلا مـن يقـول أنـا وحـدي

حمـاة كمـاة نـسج داود لبسـهم ... خبـيرون بالإقـدام والطعـن والـورد[٦٦]

تـلاحظهم شـزر مـن الغـيظ ضـلع[٦٧] ... صـدوقون بالهيجـاء[٦٨] بـالعزم والقصـد[٦٩]

يـرون الفـرار الـيوم أقـبح مـا يـرى ... وورد حياض الموت أحلى من الشهد[٧٠]

١٠ تحلـلهم تـرس بـأيد ضـراغم ... كريـه لقـاهم لايعـابون بـالرد

إذا أوقـدت نـار الـوغى أرقلـوا لهـا[٧١] ... بجأش[٧٢] قوي العزم أرسى من الطود

ففـلوا[٧٣] بـني الأكـراد[٧٤] أعظـم فلـة ... ووفـوا ديونـا للطيـور وللصـيد[٧٥]

أبدنـــاهم قتـــلا أبحـــنا حـــريمهم وكـــنا مـــن الســـباق للعـــز والمجـــد
يقـــر لنـــا الشـــاني[٧٦] بـــذاك وكلنـــا وفي إذا يـــجدي شـــفي إذا يـــرد

شرح مضمون القصيدة:

استهل الشاعر هذه القصيدة استهلالا غزليا، فوصف مدينة كُوكَاوا عاصمة المملكة البرناوية حينئذ، وذكر منازلها ووصف بناتها على عادة الشعراء العرب قديما. وفي البيت العاشر (الأول في المقطوعة قيد الدراسة) شرع في الحديث عن الحرب، وافتتحه مبشرا أهاليه وأحباءه، وعامة المواطنين بما من الله به عليهم من النصر الكبير على الطغاة، وإبادة جنود الشرك العتاة ذوي الجحد، فقد ألحق بهم من الخزي والطرد ما لا يطاق. وفي هذا التصريح عرفان بفضل الله سبحانه وتعالى عليهم، وتأييده لهم حيث تولى إبادة الكفار العتاة، وحقق النصر للمسلمين، فكأني بالشاعر في ذلك يتلو الآية الكريمة: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.[٧٧]

وفيه أيضا إيحاء بأن هزيمة الكفار هؤلاء كانت هزيمة منكرة لا قيامة لهم بعدها إذ نزلت عليهم من عند عزيز مقتدر، لا يرد له شيء، فهل هناك هزيمة أكثر تشتيتا لصفوف الكفار، وأكثر إبادة لقواهم من التي منحهم الله إياها؟ ثم انتقل الشاعر إلى وصف الجحفل الإسلامي الذي اشتبك تحت قيادته مع جيش العدو، وقد كان الجحفل كغيم ممطر أزجاه برق ورعد، ثم نفى أن يكون الجحفل قد أمطر ماء حقيقيا، فما مياهها إلا الخيل الضامرات فوقها كماة من الأبطال الشجعان حاملي الرماح الصلبة، كل يقاتل بروح فدائية عالية، ومستعد للقيام بالحملة منفردا، واستمر في وصف الجيش الإسلامي بأنهم حماة ومقاتلون أجْراء اتخذوا دروعا واقية من صنع نبي الله داود (عليه الصلاة والسلام)، وقد استلهم الشاعر من القرآن الكريم نسج داود حيث وصف القرآن هذا النسج قائلا: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾[٧٨] ثم استمر الشاعر في وصف جيشه قائلا

إنهم خبراء في الإقدام والطعن، وأنهم متسلحون في الحرب بقوة العزم والإرادة، وصامدون أمام ما يلاحقهم من شزر الغيظ الشديد، ومن شدة عزمهم يرون الفرار أقبح شيء وأشنعه، والخوض في حياض الموت والاستشهاد أحلى من العسل، واستطرد الشاعر إلى وصف أحوال الأعداء قائلا إن تروس جيش المسلمين قد شتتت جمعهم، وبددت شملهم، وشبّه المقاتلين في صفوف الجيش الإسلامي بالأسود التي يكره الناس لقاءها، ثم أخذ يفخر بقومه قائلا إنه إذا دارت رحى الحرب فإن المقاتلين المسلمين يقتحمونها مهرولين، بقلب قوي العزم، شديد البأس، أرسخ من الجبال. وقد ألحق هذا الجيش بأعدائهم من بني الأكراد هزيمة نكراء، تاركين أشلاءهم في موضع الحرب غذاء للوحوش والسباع، ثم بين أنهم أبادوا الكفار واستباحوا نساءهم، وأنهم من المستَبِقين إلى العز والمجد، وذكر أن السفن الحربية التي رست وهي عائدة من المعركة قد أقرت بالأخبار السابقة، وأضاف أن كلهم أوفياء عند العطاء، أشفياء إذا حلوا بمكان. ثم استفهم استفهاما إنكاريا: أي عزيز على وجه الأرض لا يخاف بأسهم عند اللقاء؟ وأي قوي لا يستطيعون إذلاله، وهم في حالة افتخار وتبختر؟ وأخيرا شبه هؤلاء الأعداء- وقد نالت منهم سيوف المسلمين ما نالت- بقوم عاد الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى في مواضع مختلفة في القرآن الكريم، منها قوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾،[٧٩] وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾.[٨٠]

وختم الشاعر القصيدة بالحمد لله على نعمه التي تفوق الحصر، ثم صلى وسلم على المصطفى المبعوث لإرشاد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين.

التعليق على القصيدة

هذه قصيدة أخرى في وصف الحرب، وقد أجاد فيها الشاعر، فهي على عكس قصيدة (جيش الفتوح) لم تهتم بذكر مواضع الحرب، لكنها نجحت في رسم بعض الأحوال والمظاهر

الحربية رسما يمكننا من الوقوف على شيء من شرارة الحرب ولظاها، فالشاعر أولا اختار لأبطاله الشجعانَ ذوي العزم والحزم والخبرة والإقدام، وتلك خصائص ضرورية للمحارب الباسل، ثم إنه ذكر إيقاد نار الوغى، وذكر الرمح والترس والدرع والواقي من الطعن والجرح. وأخيرا ذكر الفلّ (الهزيمة) والإبادة. هذا، وإن كان الشاعر هو الآخر لم يفصل القول في الحوادث الحربية إلا أنه أجاد أكثر من الشيخ عبد الله في قصيدة (جيش الفتوح) كما هو واضح في تحليلنا لقصيدتيهما.

موازنة وجيزة بين القصائد الثلاث

في السطور القليلة الآتية سنقوم بموازنة بين القصائد من حيث القاموس الشعري، والصورة الخيالية، وتطبيق القواعد اللغوية.

أولاً–القاموس الشعري:

إذا نظرنا إلى القصيدة الأولى نجد ألفاظها فصيحة وموافية للغرض الذي من أجله أنشئت القصيدة ولكنها لا تخلو من بعض الألفاظ الغريبة، خاصة في قوافيها، فهي تتسم بالفخامة والجزالة مما تتطلبه المعارك الحربية، ومن ذلك قوله: الذكرى صبا الهوا، وحشة النوى، وكوى غيره، واكتوي، والحرب نزاعة الشوى، ويصحّ (الخ). ويلاحظ كذلك أن قاموسها الشعري مقسم بين اللفظ الجاهلي والإسلامي، ومن الألفاظ الإسلامية ما يأتي: الجهاد، والله يعلم ما انطوا، وجنات عدن، وجهنم. ومن الأساليب الإسلامية قوله: "نزاعة الشوى" بمعنى قلاعة لجلدة الرأس، (ولله الحمد أولا وآخرا). وأما الجاهلية فمنها قوله: (على كل جرداء وأجرد شيظم) وقد قال امرؤ القيس:

والخيـــل تقـــتحم الغبـــار عوابســـا مـــا بـــين شـــيظمة وأجـــرد شـــيظم

وقوله: "ذاك القتال سجال" و"فمن مبلغ عني..." وهما تعبيران شائعان في الجاهلية.

أما القصيدة الثانية فقد صور فيها الشاعر الصحراء والسفر فيها، والطبيعة الصحراوية قاسية؛ فهي قليلة الماء، ونادرة النبات مما يجعل حرارتها محرقة وبرودتها قارسة، وقد لا يلفي فيها الإنسان ما يقي به نفسه من لهيب الشمس وزمهرير البرد، ثم هي مأوى الوحوش، وموضع الهلاك، ومن ثم إطلاقهم عليها المهلكة. وإذا رحل الصحراوي فيها لقي تعبا وعناء، فكيف بالمدني الذي لم يتعود الحياة خارج الحضر؟ ومن الطبيعة أن يختار الشاعر المطبوع –في مثل هذه الحال– ألفاظا تناسب وعورة الصحراء ووعوثتها، وقد وفق الشاعر غاية التوفيق في اختيار الألفاظ الفخمة الصلبة القادرة على نقل صورة الصحراء ومعالمها ومظاهر بيئتها، فنجد ألفاظا مثل: الهضاب، قود قائد، الفيافي العواشب، نشيم عطاشا، السباسب، وغيرها؛ والألفاظ في عمومها واضحة المعاني، وسليمة من الغموض والغرابة.

وأما القصيدة الثالثة فقد اختار صاحبها كذلك الألفاظ الجزلة؛ لأن المعارك الحربية تتطلبها. ومن الألفاظ: أباد، الخزي والطرد، جحفل، الضامرات، كماة من الأبطال، سماهر، الهيجا، فلوا أعظم فلة، صرعى، وغيرها. ولا شك أن هذه الألفاظ تؤدي المعاني وتفي بالأغراض على أكمل وجه. ونلاحظأن الألفاظ –على جزالتها– سهلة ومألوفة، لا غرابة فيها ولا تعمية، فهي واضحة المعاني، وجلية المقاصد، لا تحوجنا إلى البحث عن معانيها في المعاجم.

ثانياً–الصورة الخيالية

يجدر بالذكر أن المظاهر الخيالية في القصيدة الأولى قليلة جدا، وهذا ما لم نعهده عند هذا الشاعر الذي تفعم قصائده –عادة– بالمظاهر الخيالية الغضة الثرية. ولعل السبب في ذلك أنه كان يهتم في هذه القصيدة وأمثالها بسرد حوادث تاريخية، هي الحروب والفتوحات الإسلامية التي قام بها الجيش الإسلامي. لقد أكثر الشاعر –مثلا– من ذكر أسماء الأماكن والقرى والحصون التي تم حصارها أو تدميرها وإجلاء الكفار عنها، ولم يكترث بالوصف

التفصيلي لما جرى في الحروب، فلو أراد أن يفعل ذلك لوصف لنا السيوف والتروس والرماح والنبال والسهام والخيول والغبار، ولصوّر لنا القتلى والجرحى، ومبلغ المقاومة، والكرّ والفرّ وغير ذلك مما يوفر لنا مظاهر خيالية عديدة نرتوي منها. هذا من حيث الكمّ، أما من حيث الكيف فإن المظاهر الخيالية القليلة التي عثرنا عليها في القصيدة فتمتاز بالخصوبة؛ ومن ذلك تصوير الشاعر المال الذي تركه قائد جيش الأعداء من أهل كب حين غادر حصنه، وقد شبهه بمال قارون الذي وصفه القرآن الكريم بأن مفاتح كنوزه تنوء بالعصبة أولى القوة، ومنها تصويره الدوا (وهو المرض) بحورا متلاطمة تتموج في قلبه، وتجسيده الحرب قوى تقلع جلدة الرأس، وقد اقتبس ذلك من القرآن الكريم حيث قال واصفا نار لظى: "كلا إنها لظى، نزاعة للشوى". ومن ذلك أيضا تخيله صراخ من يستنجدونهم من المسلمين بأنه يصخّ أسماعهم، وذلك أشد ما يمكن تصوره من ضجّة الأصوات المصممة. وكذلك تصويره أفراسهم وهي تكرّ في المعركة صفراء الجراد وهي تطير، وتخيله فرسه (دندا) طائرا في الهواء حين يعدو، وأخيرا تصويره الأعداء الفارين قومَ سبأ الذين حكى لنا القرآن الكريم بأن تدميرهم تم بسيل العرم، كما مرّ. أما خيال الشاعر في القصيدة الثانية فغزير وقوي، فنراه مثلا يصور الأفيال التي شاهدها في الفلاة هضابا، ويصور آثار أقدامها آبارا سواقب، وليالي الصحراء داكنة مظلمة، لا نور فيها ولا نار، فنارهم هي المصدر الوحيد للنور، ثم يصور لنا بعوض الصحراء وحياتها وعقاربها اللاتي قمن له مقام السمار والجيران والأقرباء، ويرسم لنا بعض مشاهدها من الجدار، والدار، وقرى الضيف، وكأس الشارب، وأقام كل ذلك مقام الأشجار، والقيعان، والأثمار، والغدائر. وأخيرا يصور الشاعر الأقواس والجعاب، والرماح، والأسياف وجعلها جميعا أوانس لهم. ولا يخفى مدى نجاح الشاعر في تصوير تلك الفلاة بطبيعتها المتحركة والساكنة. فمن تصوير الحركة تسجيله مسيره بين الفيول، وسيره بلا علم ولا قود قائد، وسير ثلاثة أفراس معهم. أما تصويره للسكون فمنه ذكر بياتهم في بعض الليالي. هذا وإن دلت كثرة تصويره للحركات على شيء فإنما تدل عل همته العالية في الوصول إلى غايته في أقرب وقت ممكن وفي منتهى السرعة، غير عابئ بوعورة الطبيعة الصحراوية وقسوتها.

ومن الطبيعة المتحركة في القصيدة الفيول، والأفراس، والبعوض والحيات، والعقارب. وأما الطبيعة الساكنة التي ورد ذكرها فكثيرة منها: الهضاب، والبئار السواقب، والفيافي العواشب، وذوائب أشجار المياه الشوارب، والليلة والنهار، والخمائل، والقاع، والأضا، والأقواس، والجعاب وغيرها، وكأني بكثرة إيراده للطبيعة الساكنة يوحي بطبيعة الحياة الصحراوية، وأنها أقرب إلى السكون والركود منها إلى الحركة.

ويلاحظ أيضا أن الشاعر قد تأثر إلى مدى بعيد بالشعراء الجاهليين في تصويرهم للصحراء، فنراه مثلا يشبه الليالي التي قضاها في البيداء بليالي النابغة الذبياني. وقد أفادنا الدكتور علي أبوبكر ببيان وافٍ حول تأثر الشيخ عبد الله في هذه القصيدة ببائية الذبياني، يقول في ذلك: (وإذا أمعنا النظر في هذه الأبيات نرى أن عبد الله قد نجح إلى حد كبير في تصوير الحالة الاجتماعية في أسلوب متين واضح جلي، ولكنه لا يسعنا هنا أيضا إلا أن نقول إن تأثره بالمعلقات وعلى الأخص ببائية النابغة الذبياني واضح كالشمس في رابعة النهار. وهذه البائية هي:

كليـــني لهـــم يـــا أميمـــة ناصـــب وليـــل أقاســـيه بطـــيء الكواكـــب

فكلتا القصيدتين بائيتان ومن بحر الطويل، وفضلا عن ذلك فهناك عشرة أبياتتنتهي بنفس الكلمات التي انتهت بها أبيات النابغة).[٨١] ثم نراه يتخذ مجموعة من الحيوانات والحشرات أصدقاء، ولعله حين يفعل ذلك ينظر إلى الشنفرى حيث يقول في لاميته:

ولي دونكـــم أهلـــون سيـــد عملـــس وأرقـــط زهلـــول وعرفـــاء جيـــأل

هـــم الأهـــل لا مســـتودع الســـر ذائـــع لـــديهم ولا الجـــاني بمـــا جـــر يخـــذل

ويصف الشاعر أقواسهم وجعابهم ورماحهم وأسيافهم بأنها لهم أوانس في الصحراء متأثرا في ذلك أيضا بالشنفرى الذي يقول في اللامية نفسها:

وإني كفاني فقد من ليس جازيا بحسنى ولا في قربه متعلل
ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع وأبيض إصليت وصفراء عيطل
هتوف من الملس المتون يزينها رصائع قد نيطت إليها ومحمل

فالشاعران يتحدان في اتخاذ السيوف والرماح أصحابا وأوانس.

ونضيف إلى السابق أن الشاعر صادق الشعور والعاطفة، لأنه فعلا قطع الفيافي وذاق الحياة فيها، فجاءت أوصافه مطابقة للواقع، وشاهدة حقٍ على شعوره، على خلاف شاعر لم يذق الحياة الصحراوية قط، بل يعتمد على ما سمع أو قرأ عنها حين يصورها.

وخيال الشاعر في القصيدة الثالثة قوي مفلق، وتظهر قوته في تصويره البارع للجيش الإسلامي الكبير الذي أحاط بالأعداء إحاطة السوار بالمعصم، ونزل عليهم نزول المطر الغزير على الأرض مصحوبا بالبرق والرعد مما يثير الرعب والقلق والهلع في صفوف الأعداء. وتظهر قوة الخيال أيضا في قوله:

... ورود حياض الموت أحلى من الشهد

حيث صور النزول في المعركة ومواجهة الموت أحلى مذاقا من العسل. وقد نجح في ذلك في الجمع بين المعقول والمحسوس في قالب خيالي واحد بحيث لا يشعر القارئ بالفارق الكبير بينهما. وكذلك في تصويره للتروس وهي بأيدي الغزاة المسلمين، وقد شبههم بالأسود، فأصبحنا نرى حاملي التروس أسودا ضارية، لا أناسا عاديين. ومن أبرع ما في القصيدة من تصوير قوله:

... ووفوا ديونا للطيور وللصيد

حيث صور كتائب المسلمين بعد انتصارهم على الأعداء كأنما هم مدينون للطيور والوحوش بدين وهم يقضونها بجثث الأعداء. ومن ذلك أيضا تشبيه الأعداء وهم صرعى ببقية قوم عاد بعد أن هلكهم الله بالطاغية، كما ورد في القرآن الكريم.

ويلاحظ أن خيال الشاعر مستمد من بيئته فالبرق والرعد، والخيول الضوامر، والطيور، والوحوش وما أشبه ذلك من مشاهد الطبيعة الميتة والحية كلها مشاهد مألوفة في بيئة الشاعر.

ويجدر بالذكر أن الشاعر صادق الشعور والعاطفة، لأنه –كما ذكرنا فى ترجمته– كان قائدا عسكريا كبيرا، وبطلا مقداما جريئاً، قاد جيشه بنفسه إلى كثير من الحروب التي خاضها مع الكفار. ولهذا نجح إلى حد كبير في تسجيل وقائع الحرب بحركاتها وسكناتها، ويصورها بأصواتها تصويرا دقيقا. فمن الحركات التي سجلها: الإقدام، والطعن والورد في قوله:

... خبـيرون بالإقـدام والطعـن والـورد

ومنها الإرقال (الإسراع) في قوله:

إذا أوقـدت نـار الـوغى أرقـلوا لهـا

أما الصور المرئية فهي كثيرة ومتعددة، وهي مشاهد الطبيعة بأنواعها؛ المتحركة، والساكنة، والصناعية، ويكفي دليلا على ذلك النماذج التي أتينابها. وأما الصوت فتصويره كان قليلا ومن ذلك صوت الرعد في قوله:

كصـيّب مـزن هـدّ بـالبرق والرعـد

وصيحة البعد كما في قوله:

بقيـة عـاد أسمعـوا صـيحة البـعد

ثالثاً– تطبيق القواعد اللغوية:

إن القصائد الثلاث قيد الدراسة لآية ناطقة بطول باع الشعراء النيجيريين في القرن التاسع عشر الميلادي ورسوخ أقدامهم في اللغة العربية، وتمكنهم من قواعدها. لقد نجحوا في تطبيق القواعد النحوية والصرفية ببراعة عالية، فجاءت قصائدهم سليمة من المخالفات النحوية والصرفية اللهم إلا ما نلاحظه من بعض الهنات الإملائية مما يمكن إرجاعه إلى أخطاء النَّقل

والنَّقَلة، مما يبرهن على ما كانوا يتمتعون به من المهارة والحذاقة في هذا الحقل. والنماذج الثلاثة التي تعرضنا لها تكفي شاهدا على ذلك.

إن مما لا يدع مجالا للشك أن الأدب العربي في نيجيريا قد خطا في القرن التاسع عشر الميلادي (العصر الفلاني) خطوات واسعة إلى الأمام، وشهد تطورا كبيرا لم يشهده في العصور السالفة، ولا شك أن النهضة الأدبية التي شهدها القرن لم تنشأ من فراغ بل هي ثمرة البذور التي غرسها أجلة العلماء والأدباء في الفتراث السابقة، وأن الشعراء الذين حملوا لواء تلك النهضة من خيرة من أنتجتهم المدارس الأهلية والعلماء المحليون، ولا شك أيضا أن ظهور الأسرة الفودية بما تمتاز به من المواهب الأدبية الفذة، والقوة العسكرية الرهيبه، والحنكة السياسية النادرة مما أسهم إسهاما كبيرا في تلك النهضة، فالأسرة ظاهرة من طراز فريد قل أن يجود الزمن بمثلها لقرن من القرون، فقد قامت مع عدد قليل من علماء برنو برفع الأدب العربي إلى القمة في تلك الحقبة.

لقد تطور الشعر عامة، وشعر الوصف خاصة تطورا ملموسا في العصر الفلاني، فقد بدأ الشعراء يُفْردون القصيدة بكاملها للوصف، غير أن وصف الحرب هو الغالب على وصفهم، ويرجع سبب ذلك إلى كثرة حروب الجهاد التي خاضوها مع قبيلتي هوسا وغوبر.
هناك دوافع كثيرة تحفز الناس إلى حمل السلاح ضد بعضهم بعضا، منها الدفاع عن الملك وعن العرض، أو الوطن أو الدين. كان الدفاع عن الدين وتوسيع الأراضي الإسلامية الدافع الرئيس إلى حروب الأسرة الفودية مع العديد من القبائل المجاورة لدولتهم، ولهذا كان وصف الحرب الغالب على شعرهم.

وفضلا عن الحرب، فقد وصف شعراء الحقبة أخلاق الناس، ووصفوا المناخ، والخيل والصحراء، وإن كان الأخيران قليلين جدا، وبهذا يفوقون شعراء العصور السالفة في وصف المظاهر الطبيعية.

ويتضح من خلال الدراسة أن شعراء هذه االحقبة كانوا يقلدون شعراء العصر الجاهلي، ولهذا قال فيهم كمال بدري:(والشعر النيجيري العربي في معظمه وخاصة في القرن

التاسع عشر ما هو إلا محاكاة للشعر العربي... على أن الشعراء النيجيريين كانوا يقصدون إلى المحاكاة قصدا تشبها بالشعراء الإسلاميين، فهم يريدون أن يتقمصوا روح كل ما يمتّ إلى الإسلام بصلة).[٨٢] لكن تقليدهم ليس تقليدا أعمى، إذ أتوا بكثير من الإبداع، واستلهموا ما في بيئتهم خير استلهام.

ونلمس في قصائدهم شيئا من الصدق الفني الذي أرسى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قواعده حين نقد شعر زهير بن أبي سلمى؛ فقد روى ابن سلام، يرفعه عن عبدالله بن عباسرضي الله عنهما قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (أنشدني لأشعر شعرائكم، قلت: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير. قلت: ولم كان ذلك؟ قال: كان لا يعاظل بين الكلام، ولا يتبع حوشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه)،[٨٣] فقوله: "ولا يمدح الرجل إلا بما فيه" إشادة بصدقه الفني في ممدوحه، فهذه الملاحظة الصادرة من عمر رضي الله عنه مرآة شفافة للدروس النبوية التي تلقاها الصحابة الكرام تلقائيا ومرارا وتكرارا من الرسول صلى الله عليه وسلم ممثلة في مثل قوله: "قل الحق ولو كان مرا"،[٨٤] و"قل الحق ولو على نفسك"،[٨٥] وذلك على عكس قول العرب في الجاهلية (أعذب الشعر أكذبه). وقد رأينا كيف طبق هؤلاء الشعراء هذه الدروس الخلقية تطبيقا فنيا في مثل قول عبدالله بن فودي في قصيدة جيش الفتوح:

فـإن سـر غـوبر والتـوارق ذاك ال قتـال سجـال لـيس مرجعنـا سـوا

فمـن قتـلاهم في جهـنم دائمـا ومن في جنان الخلد ليسوا على استوا

ففي قوله هذا تصريح بأن الأعداء نالوا منهم، إذ القتال سجال. ومن الصدق الفني أيضا عدم ادعاء الانتصار على الأعداء، وإرجاع النصر إلى الله سبحانه وتعالى في مواضع عديدة، مصداقا لقوله تعالى: "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمي".

الخاتمة:

ومما يلاحظ أيضا في الدراسة السابقة أن شعراء الحقبة قد بلغوا الذروة في قرض الشعر باللغة العربية، وتشهد على ذلك صحة ألفاظهم، وقوة مخيلتهم، وسلامة لغتهم وعبارتهم، وجودة بلاغتهم، وبراعة تطبيقهم لقوانين العروض والقافية.

فإذا نظرنا إلى ألفاظهم نجدها في جملتها سهلة وعذبة، وواضحة المعاني، لكنها عند عبدالله أصعب منها عند غيره، خاصة في قوافيه التي يحشدها بالألفاظ الصعبة، وتتسم الألفاظ أيضا بالجزالة والفخامة إذا وصفوا الحرب ومعداتها. وإذا نظرنا في الخيال نجده عندهم خصبا وقويا، وروافد خيالهم ثلاثة؛ **الأول**: ما يستمدونه من مظاهر بيئتهم، و**الثاني** ما يستمدونه من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، و**الثالث**: ما كسبوه من الشعر الجاهلي.أما قواعد اللغة العربية فقد برعوا في تطبيقها أيما براعة مما يبرهن على أنهم –بحق– حذقوها وملكوا زمامها. ومما يؤكد ذلك سلامة القصائد من الأخطاء اللغوية إلا نادرا جدا مما يمكن رد سببه إلى النَّقَلة.وأما البلاغة فقد ولجوها من شتى أبوابها، وتؤكد هذه الدراسة أنهم أساطين البيان ورجال هذا الميدان، لقد أتوا بفنون علم البيان من التشابيه الرائعة، والمجازات والكنايات البديعة، وتفننوا في علم المعاني بألوانها؛ أما علم البديع فقد اقتصدوا ولم يكثروا منه كما فعل شعراء القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين.وأما العروض والقوافي فقد طبقوا قواعدها تطبيقا جيدا، وحاولوا قدر الإمكان تفادي عيوبها الشائعة مثل الاختلاط في الوزن، والتضمين، والإقواء، والإيطاء وغيرها، ولكن قليلا من أبياتهم يعاني من الخلل والاضطراب في الوزن. ويلاحظ أيضا أن بحر الطويل هو أكثر البحور التي استخدموها في قصائد الوصف، وبحر الرجز أقلها. ولعل السر في ذلك أن بحر الطويل هو أنسب البحور للوصف وذلك لطوله الذي يمكِّن الشاعر من إيداع قصيدته كل ما يريد أن يبوح به عن موضوعه. فالبحر أطول البحور إذ ليس في الشعر العربي ما يبلغ عدد حروفه ثمانية وأربعين حرفا غيره.[٨٦] هذا ومما يحسب لهؤلاء العلماء أنهم حصّلوا ما حصّلوه من العلم الغزير ولم

يغادروا حدود بلادهم نيجيريا، اللهم إلا محمد الأمين الكانمي الذي تعلم في القاهرة وغيرها، كما مر في ترجمته. وقد فاقوا السابقين لهم، وأعجزوا اللاحقين بهم كما هو واضح خلال إنتاجاتهم التي تعرضنا لدراستها. ويبقى أن نقول إنه إذا كان القرنان السابع عشر والثامن عشر الميلاديان يفوقان االحقبة قيد البحث (العصر الفلاني) من حيث كثرة العلماء، فإن العصر الفلاني قد شهد تطورات لم يشهدها القرنان على امتدادهما الزمني، أهمها كثرة الإنتاج الأدبي شعرا ونثرا. أما من حيث الشعر فقد رأينا التوسع الذي دخله عامة، وشعر الوصف خاصة، وأما من ناحية النثر فيكفي دليلا ما خلفوه من تآليف ضخمة في السياسة، والأدب، والنحو، والصرف، واللغة، والعروض، والبلاغة وغيرها. ولعل زكريا حسين غير مجاف للصواب عندما سمى العصر الفلاني بعصر الاستقرار،[٨٧] وقبله علي أبوبكر الذي سماه بالعصر الذهبي.[٨٨]

هوامش البحث:

[١] Hunwich, John, (١٩٩٧). *"The Arabic Literary Tradition of Nigeria" in Irele (ed.) Research in African Literatures*, USA, p٨٦.

[٢] انظر: ابن فودي، عبد الله بن محمد، **تزيين الورقات**، تحقيق وترجمة: م. هسكت، (نيجيريا: مطبعة جامعة إبادن، ١٩٦٣م)، ص٣٠؛ وسعاد، محمد الرابع، "**حركة الشيخ عثمان بن فودي ودورها في نهضة اللغة العربية والثقافة الإسلامية**"، مقالة قدمت بالندوة العالمية حول اللغة العربية والثقافة الإسلامية بدول الساحل الإفريقي المقامة بجامعة بايرو بكنو، بين ٢٧-٢٩ من يوليو عام ٢٠٠٢م، ص٣؛ وانظر أيضا: أبو بكر، أمين الدين، **المجاهد الكبير في غرب أفريقيا الشيخ عثمان بن فوديو تحقيق كتابه نصيحة أهل الزمان**، (نيجيريا: جماعة الدعوة في نيجيريا، كنو،١٩٩٢م)، ص١٧—٤٣؛ والإلوري، آدم عبد الله، **الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي**، ط٢، (نيجيريا: ١٩٧٨م)، ص١٠٧—١٠٩.

[٣] انظر: علي أبو بكر، علي، **الثقافة العربية في نيجيريا من ١٧٥٠ إلى ١٩٦٠م عام الاستقلال**، ط١، (بيروت: لبنان، مؤسسة عبدالحفيظ البساط، ١٩٧٢م)، ص٦٨.

[٤] انظر: ابن فودي، عبد الله بن محمد، **تزيين الورقات**، ص٥-٦.

[٥] انظر: السابق نفسه، ص٦.

[٦] السابق نفسه.

[٧] السابق نفسه، ص٣٤.

٨ انظر: السابق نفسه، ص١٤.

٩ السابق نفسه، ص٩.

[١٠] السابق نفسه، ص٢١.

[١١] انظر: السابق نفسه، ص١٦.

[١٢] انظر: ابن فودي، عبد الله بن محمد، **تزيين الورقات**؛ لكن John Hunwich في مقالة له بعنوان: The Arabic Literary Tradition of Nigeriaفي مجلة *Research in African Literatures*يقترح سنة ١٨٢٦م، ص٢١٢.

[١٣] النوا: البعد.

[١٤] أرقني الجوا : منعني الحزن من النوم.

[١٥] ومن معهم ثوا: أي سكن وأقام معهم.

[١٦] دندا: اسم فرسه.

[١٧] الروا: الارتياح.

[١٨] خوا: خُرِّب ودُمّر وخلى من الناس.

[١٩] كباوا: جمع أهل كَبِ، وقد جمع باللغة الهوسوية.

[٢٠] الصوا: الجبال.

[٢١] القوا: أصله القواء، فقصر للوزن، وهو الصحراء.

[٢٢] الدوا: المرض.

[٢٣] سجال: أي تارة لهم وتارة عليهم.

[٢٤] ضروبا من التوا: أنواعا من التثاقل.

[٢٥] نزاعة الشوا: قلاعة لجلدة الرأس.

[٢٦] اكتوا: طلب حرق غيره بالنار.

[٢٧] ممرد: مبنى عالٍ.

[٢٨] هبا الكوا: الهباء هو الغبار المتناثر، والكوا فتحة في الجدار.

[٢٩] الخوا: المسكن.

[٣٠] من صوب صاحبه ضوا: من مال نحو صاحبه أو لجأ إليه.

[٣١] يصخ سماعنا: يضرها فيصمّها.

[٣٢] أجرد شيظم: الأجرد هو الفرس الخالي من الوبر، والشيظم الفرس الطويل.

[٣٣] بوا: سكن.

[٣٤] اعتمدت في نقل القصيدة على مصدرين هما: النسخة الأصلية من كتاب:ابن فودي، عبدالله بن محمد، **تزيين الورقات**، (نيجيريا: المطبوعة بمطبعة جامعة إبادن، ١٩٦٣م)، والنسخة التي قام السيد م. هسكت بتحقيقها وترجمتها إلى الإنجليزية.

[٣٥] سورة القصص، الآية٧٦.

[٣٦] انظر: ابن فودي، عبد الله بن محمد، **تزيين الورقات** ص٧٠.

[٣٧] انظر: السابق نفسه، ص١١٤، في الهامش.

[٣٨] انظر: السابق نفسه، ص٧٢.

[٣٩] عنان: سير اللجام.

[٤٠] مفاوز: جمع مفازة: الفلاة التي لا ماء بها.

[٤١] كالبئار السواقب: كالبئار القريبة الماء والسقي.

[٤٢] الفيافي العواشب: الصحراوات المعشبة.

[٤٣] نشيم عطاشا: اشرأبت نفوسهم وهم عطاش.

[٤٤] نابغية: نسبة إلى نابغة الذبياني، شاعر الجاهلي المشهور.

[٤٥] السباسب: جمع سبسب الصحراء.

[٤٦] بعوض: حشرة مضرة من فصيلة البعوضيات، تسبب حمى الملاريا، وتسمى أيضا ناموسا.

[٤٧] حياة: (حيات) جمع حية، الأفاعي.

٤٨ خمائلها: أشجارها الملتفة.

[٤٩] الأضا: الغدير.

[٥٠] القرى: ما يقدم للضيف من طعام وشراب.

٥١ جعابنا: جمع جعبة: كنانة يحمل فيها النشاب والسلاح.

[٥٢] حم نيل المئارب: المآرب جمع مأرب جمع مأربة: الحاجة والرغبة، وحم نيلها قرب.

[٥٣] أحاد المطايا حثها: أي يا من يحدو المطايا ويسوقها حُثَّها.

[٥٤] ملسوم، ج. ر، **الكانمي أو منقذ برنو**، ترجمة: كمال إبراهيم بدري، (نيجيريا: كنو، جامعة بايرو، ١٩٧٨م)، ص٣.

[٥٥] انظر: السابق نفسه، ص ٤، لكن الشيخ آدم الإلوري يحكي عكس ذلك تماما، حيث يرى أن أباه عربي وأمه كانمية؛ انظر: **الإسلام غي نيجيريا**، ص٦٤.

[٥٦] السابق نفسه، ص٥.

[٥٧] السابق نفسه، ص١٣.

[٥٨] السابق نفسه، ص١١٧. بتصرف

[٥٩] انظر: ملسوم، ج. ر.، السابق نفسه، ص٦٤؛ويرى الشيخ آدم الإلوري أن وفاته كانت عام ١٨٨١م؛ انظر:**الإسلام في نيجيريا**،ص٦٤.

[٦٠] جحفل: الجيس الكبير.

[٦١] صيب مزن: غيم ممطر.

[٦٢] هد: نزل بغزارة، أي أزجاه البرق والرعد فنزل بغزارة.

[٦٣] الضامرات: الخيل الضوامر البطن، السريعات.

[٦٤] كماة: مقاتلون شجعان لابسون للسلاح والدروع.

[٦٥] سماهر: جمع سمهر، الرمح الصلب.

[٦٦] الورد: لون من ألوان الأسد.

[٦٧] ضلع: شديد.

[٦٨] الهيجا: الحرب.

[٦٩] القصد: الاعتدال وعدم الإفراط.

[٧٠] الشهد: العسل.

[٧١] أرقلوا لها: أسرعوا لها.

[٧٢] الجأش: القلب.

[٧٣] فلوا: هزموا.

[٧٤] الأكراد: جمع كردى، أهل باغرمي.

[٧٥] الصيد: الأسد.

[٧٦] الشاني: ورد في "المنجد في اللغة والأعلام": أنه ضرب من السفن الكبيرة للحرب خاصة. وندر استعماله مفردا، والمراد به هنا المبغض.

[٧٧] سورة الأنفال، الآية١٧.

[٧٨] سورة سبأ، الآية١١.

[٧٩] سورة فصلت، الآية١٥.

[٨٠] سورة الحاقة، الآية٦.

[٨١] أبوبكر، علي، **الثقافة العربية في نيجيريا من ١٧٥٠ إلى ١٩٦٠م عام الاستقلال**، ص٣٤٠.

[٨٢] بدري، كمال، **"الشعر العربي في نيجيريا في القرن العشرين"، في دراسات عربية**، العدد الرابع، (نيجيريا: مجلة قسم اللغة العربية بجامعة بايرو، كنو، ١٩٧٨/ ١٩٧٩م)، ص١٨.

[٨٣] عبادة، السعيد السيد، **نشأة النقد عند العرب**، (القاهرة: جامعة الأزهر، د.ت).

[٨٤] رواه أبو اذر، وذكره ابن جبان في المجلد ٢ من صحيحه، ص٧٦.

[٨٥] لم نجد لهذا الحديث سندا، ويبدو أنه رواية بالمعنى للحديث الأول.

[٨٦] انظر:سلامة، محمد زين العابدين وآخران، **المنهل الصافي في العروض والقوافي**، ط١، (القاهرة: دار الطباعة المحمدية، ١٩٨٣م)، ص٢٩.

[٨٧] انظر:حسين، زكريا، **المأدبة الأدبية لطلاب العربية في إفريقيا الغربية**، (نيجيريا: أوتشي، دار النور، ٢٠٠٠م)، ص١٧٦.

[٨٨] انظر: أبوبكر، علي، **الثقافة العربية في نيجيريا من ١٧٥٠ إلى ١٩٦٠م عام الاستقلال**، ص٢٩٧.

المراجع:

References:

Abu Bakr, ʿali, *al-Thaqāfah al-ʿarbiyyah fī Naijīryā min ١٧٥٠ - ١٩٦٠ʿām al-Istiqlāl,* ١st edition, (Beirut: Lubnān, Muʾsassasahʿabd al-Ḥafīẓ al-Basāṭ, ١٩٧٢).

Abu Bakr, Amīn al-Dīn, *al-Mujāhid al-Kabīr fī Gharb Afrīqiyā al-Shikh ʿuthmān Bin Fudiy wa Taḥqīq Kitābihi Nuṣḥ Ahl al-zamān,* (Naijīryā: Jamāʿat al-Daʿwah fī Naijīryā, kinu- Naijīryā, ١٩٩٢).

Al-Alūriy, Adam Abdullāh, *al-Islām fī Naijīryā wa al-Shikh ʿuthmān Bin Fudiy*, ٢nd edition, ١٣٩٨h/١٩٧٨).

Al-Rābīʿ, Moḥammad Suʿād, *"Ḥarakah al-Shikh ʿuthmān Bin Fudiy wa Dawruhā fī Nahḍah al-Lughah al-ʿarbabiyyah wa al-Thaqāfah al-Islāmiyyah"*, al-Nadwah al-ʿālamiyyah Ḥawla al-Lughah al-ʿarbabiyyah wa al-Thaqāfah al-Islāmiyyah biduwal al-Sāḥil al-Afrīqiyy, Jāmiʿah bāyrubiknu, ٢٧-٢٩ July, ٢٠٠٢).

Al-Saʿīd, ʿIbādah, al-Sayid, *Nshʾah al-Naqd ʿinda al-ʿarab*, (Cairo: Jāmiʿah al-Azhar bilqāhirah, no date).

Badrī, Kamāl, "al-Shiʿr al-ʿarabiyy fī Naijīryā fī al-Qarn al-ʿishrīn", *Majalah dirāsāt"arabiyyah*, (Majlah Qism al-Lughah al-ʿarabiyyah bijāmiʿahh bāyrū, kinu – Naijīryā, al-ʿadadal-Rābiʿ, ١٩٧٩).

Hiskit, M., ed. *Tazyīn al-Wrqāt Lilshikh ʿabdAllah Bin Muḥammad Bin Fudiy*, Maṭbaʿah Jāmiʿah Ibadān, ١٩٦٣).

Ḥusīn, Zakariyā, *al-Maʾdabah al-Adabiyah liṭulāb al-ʿarabiyyah fī Afrīqiyā al-Gharbiyyah, Utshiy*, (Naijīryā: Dār al-Nūr, ٢٠٠٠).

John Hunwich, (١٩٩٧) "*The Arabic Literary Tradition of Nigeria*" in Irele , ed. *Research in African Literatures*, USA.

Salāmah, Muḥammad Zīn al-ʿābidīn waʾākharūn, *al-Manhal al-Ṣāfīfī al-ʿarūḍwa al-Qawāfī*, ١st edition, (Egypt: Dār al-Ṭibāʿah al-Muḥammadiyyah, ١٩٨٣).